السلطة والسجون في روايات علي بدر

تزره نورالدين نجم الدين[١]، لطيف محمد حسن[٢]

[١] قسم اللغة العربية، كلية التربية الأساسية، جامعة راپرين، إقليم كوردستان، العراق
[٢] قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة كويه، إقليم كوردستان، العراق

المستخلص

الرواية هي الوسيلة الأدبية المؤثرة في معالجة مشاكل المجتمع أو ابرازها أمام الناس عن طريق العناصر الأدبية. يمكن أن نقول بأنّ الرواية العربية غنية بالموضوعات والقضايا المختلفة في المجتمع وذلك بسبب كثرة الأحداث المتنوعة التي يراها الروائي في وطنه العراق. فمن هذا المنطق نجد علي بدر الروائي العراقي قد شعر بالأحداث التي حدثت في بلده وقام بتصويرها بطريقة أدبية في رواياته. هذه الدراسة الموسومة ب(السلطة والسجن في روايات علي بدر) تتحدث عن فضاء السجن في السجون العراقية بعد(2003). ركّز علي بدر على السجون وما يحدث فيها في أربعة روايات وهي (حفلة القتلة, والكذابون يحصلون على كل شيء, والركض وراء الذئاب، و مصابيح أورشليم) يصور علي بدر فضاء السجن والشخصيات التي تدير هذه السجون وكذلك المساجين وحالاتهم وكيفية التعامل معهم داخل السجن. فضلا عن ذلك يروي جميع أنواع التعذيب سواء كان تعذيبا نفسيا أم جسديا. فضلا عن ذلك يصور على بدر الواقع الخارجي في هذه السجون خصوصا في رواية حفلة القتلة عندما يتحدث عن (قصر الحياة) التي انقسمت إلى طابقين الطابق العلوي فهي مخصصة للترفيه لعوائل الضباط أمّا الطابق الارضي فكان جحيما خصص للمساجين،فهو بذلك يعرض الصورة أمام القاريء بأن السلطة الفاشية توفر الحياة الرفاهية لجماعة تابعة لها وتأخذها من الجماعة المعارضة لها وتدخلها في السجون بأيّ سبب من الأسباب.

كلمات مفتاحية: التعذيب، السجن، السلطة، علي بدر، الرواية

المقدمة

السلطة السياسية هي القدرة أو القوة التي تمكن الفرد أو المجموعة من تحقيق التأثير والتحكم في القرارات والتوجه السياسي في مجتمع معين. وتعد السلطة السياسية أحد عناصر السلطة الرئيسية في أي نظام سياسي، يمكن أن تكون السلطة السياسية مرتبطة بالحكومة والدولة، حيث تتوزع السلطات والصلاحيات بين السلطات التنفيذية ،والتشريعية ،والقضائية. وتستند سلطة الحكومة على القانون والدستور وتتمتع بصلاحيات تشمل إصدار القرارات وتبني السياسات وتنفيذها وفرض القوانين وإدارة الشؤون العامة.(صديق،2001: 150). وتدخل السلطة السياسية في العلاقات الدولية، حيث تستخدم الدول سلطتها للتأثير في سياسات الدول الأخرى. قد تشمل ذلك القدرة على تكوين تحالفات، وفرض العقوبات الاقتصادية، واستخدام القوة العسكرية (منيف, 2003: 102).

وقد تنشأ السلطة السياسية على مستوى المجتمع المدني، مثل المنظمات غير الحكومية والحركات الاجتماعية والأحزاب السياسية والنقابات العمالية. تمثل هذه السلطات في قدرتها على تنظيم الرأي العام وتبني سياسات مؤثرة في البنية الاجتماعية وتغيرها (منيف, 2003: 102).

"علي بدر" هو روائي عراقي بارز حصل على شهرة واسعة النطاق بسبب رواياته وأعماله الأدبية .ولد في بغداد، وعاش فيها حتى انتقاله إلى أوروبا في بلجيكا أنهى دراسته للأدب الفرنسي في جامعة بغداد، ثم أكمل دراسة الفلسفة في جامعة بروكسل بعد ترجمة أعماله إلى لغات عديدة، دشن تيار ما بعد الحداثة في الرواية العربية، وأعماله وثيقة الصلة بحياته من جهة, وهي مرآة عاكسة للحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية في العراق من جهة أخرى. تدور أغلب رواياته في بغداد وتتخذ من الطبقة الوسطى موضوعا لها، وقد حاولت رواياته رسم صور مهمة عن التاريخ الثقافي والاجتماعي والسياسي للعراق عبر فن الرواية.

حيث صدرت له من يومنا هذا إلى هذا اليوم خمسة عشر رواية، ومجموعة قصصية واحدة، وست دراسات فلسفية، وثلاث مسرحيات، وديواني شعر. ومن رواياته التي تتجلى فيها صورة السجون "حفلة القتلة,والركض وراء الذئاب، وعازف الغيوم, و مصابيح أورشليم و ، والكذابون يحصلون على كل شيء" إذ جاءت في هذه الروايات صورٌ كثيرة متنوعة لشخوص مقموعة في زنازين السجن, إذ تعرض هذه الصور نكبة المجتمع العراقي والاحداث التي مرّ به تأريخ العراق الحديث.

مجلة جامعة كويه للعلوم الانسانية والاجتماعية، المجلد ٧، العدد ٢ (٢٠٢٤)
أستلم البحث في ٦ كانون الثاني ٢٠٢٤؛ قُبل في ٢٠ شباط ٢٠٢٤
ورقة بحث منتظمة: نُشرت في ٥ تشرين الثاني ٢٠٢٤
البريد الإلكتروني للمؤلف: tazra.nooraldin@uor.edu.krd
حقوق الطبع والنشر © ٢٠٢٤ تزره نورالدين نجم الدين، لطيف محمد حسن. هذه مقالة الوصول اليها مفتوح موزعة تحت رخصة المشاع الإبداعي النسبية - CC BY-NC-ND 40.

اهتم علي بدر في أغلب رواياته بالسجن وفضاء ذلك المكان القامع في أغلب رواياته التي أشرنا إليها. حيث يُصوّر الواقع المرير والقمع السياسي في العراق، الذي أدى إلى انتهاك الحرية والديمقراطية وضياع أبسط حقوق الإنسان مما أحال العراق إلى سجن كبير يضم تحت سلطته سجون صغيرة حيث دخل علي بدرعلى هذه السجون وصّور مايحدث فيها من أنواع العذاب الجسدي والنفسي وهو في كل ذلك كان دقيقا في تصوير التغيرات التي تحصل في أنواع التعذيب, ففي رواية حفلة القتلة التي صدرت عام(2018) جمع فيها

مدخل:

" لم يشهد العراق منذ أوائل العشرينات من القرن الماضي وحتى بداية الألفية الثالثة قدرا من الحرية المعقولة في العمل السياسي، باستثناء حقبة العهد الملكي إلى حد ما، و غالبا حزب السلطة هو المهيمن على المشهد السياسي، وهو الذي يمسك بزمام الأمور, ويستحوذ على أجهزة الدولة برمتها. وقد تبلورت فكرة الحزب الواحد، والقائد الأوحد بعد ثورة الثامن من شباط1963 وتوالي الأنظمة العسكرية على السلطة والتي لاتولي اهتماما للأحزاب السياسية الأخرى. فما إن يصل أحد الأحزاب القوية إلى دفة الحكم حتى يقوم بقمع الاحزاب الأخرى بالحديد والنار, وزج عناصرها في السجون والمعتقلات، وقد تبادلت أغلب الأحزاب العراقية القوية هذه الأدوار،غير أن النظام البعثي المنهار لم يترك حزبا من الأحزاب الوطنية الا وزج الكثير من عناصره في السجون " (أحمد,2014: 70)

منذ دخول القوات الأمريكية وسقوط النظام السابق عام 2003، أصدر الروائي علي بدر مجموعة من الروايات بعناوين"حفلة القتلة, والركض وراء الذئاب، وعازف الغيوم، و مصابيح أورشليم و ، والكذابون يحصلون على كل شيء ،والكافرة" يصورفيها الحروب والاقتتال والسجون والخوف خلال حكم الديكتاتور وما تلاه من تبعات فجائعية، مثل الاحتلال والإرهاب وقتل الأبرياء والإحباط وتلاشي الأحلام. حيث يمكن رؤية الخوف والآلام مقابل الطموح والأماني في رواياته، وهذا يعكس واقع الإنسان العربي والعراقي على وجه الخصوص وقسوة التحديات التي كان يواجهها.

تعبر روايات علي بدر بشكل واضح عن قضايا سياسة، خاصة بعد الأزمات السياسية الحادة التي مرّ بها المجتمع العراقي، من قبيل الحرب العراقية الإيرانية مثل حرب إيران واحتلال الكويت والحصار الاقتصادي والانتفاضة وسقوط حكم البعث وإنتشار ظاهرة الإرهاب والقتل على الهوية.

يشكل موضوع السجن محورًا بارزا في الرواية السياسية، حيث يمثل تدهور الوضع العراقي على جميع المستويات، لا سيّما المستوى السياسي بسبب غياب حقوق الإنسان وظلم السلطة السياسية كما يتجلى في فضاء السجون والمعتقلات السياسية، ووصف الزنزانة ومراحل السجن والاعتقال وعمليات التحقيق والتعذيب، حيث تصف المشاهد المؤلمة عمليات التعذيب وانتهاك حقوق الإنسان، والجلادين ومسؤولي السجن وطرق تعاملهم لاستخراج الإعتراف وتثبيت التهم. لبيان العالم الخفي والحياة المؤلمة للسجناء داخل السجن.(المنصف 1992: 7)

يتم السجن السياسي عن غياب الحريات الإنسانية والديمقراطية في المجتمع، ويعد جزءًا من آلية القهر التي تستخدمها السلطة لاستبداد الافراد وتعذيبهم على المستوى الجسدي والنفسي. فبذلك يدل موضوع السلطة والسجون على غياب الديمقراطية في المجتمع و الاعتداء على حقوق الإنسان. (الفيصل، 1993: 76)

كل ضروب التعذيب فضلا عن إبراز الشخصيات التي تدير السجون وكذلك حالة المساجين.

تناولنا في رواية (الركض وراء الذئاب) صورة اغتصاب لفتيات كأحد أنواع التعذيب والتحقيق وانتزاع الاعتراف في السجون العراقية، وأثارت رواية (مصابيح أورشليم) صور الاعدام وحالة المساجين أثناء الاعدام، فضلاً عن صور السخرية منهم أثناء اعدامهم كما في رواية (الكذابون يحصلون على كل شيء) .

واتّبعت المنهج النقدي الثقافي في هذا البحث.

"إنّ تجربة السجن السياسي تجربة انسانية، تجتاح الذات، وليس السجن السياسي إلا مظهرا من مظاهر القمع والبطش في ظلّ غياب الديمقراطية، فتصادر حرية المرء، وتهان كرامته، ويعد الوجه المادي للقمع والبطش في ظل غياب الحرية، أو القمع المعلن في حين تمارس السلطة قمعا آخر غير معلن في الحياة عن طريق مؤسساتها وبيروقراطيتها، إذ ليس مهماً أن يكون الفرد في غرفة مظلمة ليقال إنه سجين، فالسجن مفهوم نسبي"(النصير,2018: 330)، لذا يحاول علي بدر إبراز مظاهر أزمة الحرية في ممارسة العنف السياسي و التفنن في صنوف التعذيب، ليخرج في النهاية بمشاهد من عتمة السجن والمعتقلات عن طريق تصويرها بالكلمات.

"من الممكن القول إنّ الأنظمة العربية هي أكثر الأنظمة الموجودة في العالم ولعا بمطاردة معارضيها، وزجّهم في السجون، وتصفيتهم جسديا. إن مايميّز العراق على وجه التحديد، والانظمة العربية عامة هي أنها تطلب من الانسان أن يتخلى عن قناعاته الفكرية، ويتنكر لماضيه السياسي، وأن يعلن ولاءه للسلطة بواسطة (صك البراءة) الذي يتعهد فيه عدم مزاولة نشاطه السياسي السابق، وعدم اعتناق الأفكار الهدامة ،أو المستوردة ،أو المخالفة وبخلافه فإنّه يتعرض لمختلف أشكال القمع الذي يصل إلى حد النفي القسري،أو التغييب في السجون والمعتقلات ،أو التصفية الجسدية ... كما إنّ هذه الأنظمة القمعية لا تؤمن بالحياد أو اللون الرمادي أو المواقف الوسطية، فإمّا أن يكون المواطن مع السلطة أو معارضا لها، وهذا يعني من بين مايعنيه أن الأنظمة العربية غير مستعدة لخوض أي نوع من أنواع الصراع الفكري أو السياسي أو الثقافي بسبب غياب الأجواء الديمقراطية التي تستطيع أن تحتوي هذا الصراع بأشكاله وتجلياته المتعددة من جهة؛ ولأنها لاتؤمن إلا بلغة العنف والبطش والقتل من جهة أخرى" (أحمد,2014: 62)

السلطة السياسية والسجون في روايات علي بدر

تتكون رواية (حفلة القتلة) من مجموعة قصص صغيرة، تقدم أحداثا مختلفة وشخصيات متنوعة، لكنها تتشابك وتتداخل لتكوين قصة أساسية واحدة تكشف عن الواقع المر للسجن والقمع السياسي في العراق هذه الرواية تتميز بعنايتها في تسجيل ما يشاهده السارد ويمرّ به من أنواع التعذيب باستعمال الإرهاب النفسي والجسدي بطريقة غير انسانية عن طريق جلادين مرعبين يستلذون بتعذيب السجين، وينتشون بهدر كرامته وسحق رجولته، فقد تضمن حكم نظام صدام أشد أنواع التعذيب، مما تقشعر له الأبدان بهدف تطويع الأجساد، وتذويب العقول بغرس الرعب فيها، بهدف دفن كل رغبات، والقضاء على روح النقد والرأي نهائيا.

تتشكل أحداث في (قصر الحياة) وهو المكان الرئيسي فيها في، فعرضت الرواية وصف ذلك المكان بشكله الهندسي وأبعاده الخارجية والداخلية بدقّة بصرية وحياد بعيد عن التقييم فكل صور التعذيب والقتل تسرد على لسان سارد يكشف خبايا وأسرار هذا المكان المطمور، فيقول: "**كنا في القصر الذي كان يطلق عليه ذلك الوقت بقصر الحياة, حيث مطعم شهير شيّد في العام 1969على سطحه يحمل الاسم ذاته, كما تمت**

الاستعانة بمهندس معماري فرنسي اسمه .P.H بي اتج. كان يعمل في لبنان, وبالاتفاق مع شركة مقاولات فخمة تم تشييد صالة رقص في الطابق الثاني, وصالة موسيقى فول هارموني وأوبرا في الطابق ذاته, وتم الاستعانة بشركة إيرانية في فترة الشاه على الارجح في العام 1970 لتشييد بركة أولمبية للسباحة على السطح أيضا مع زاوية للباربيكيو وحفلات الشامبانيا الخاصة, من الواضح لم تشارك أي شركة عراقية في تشييده لذلك بقي مجهولا تقريبا تماما من قبل العامة, فلا أحد يعرف عنه شيئا, لقد كان مثل مركبة فضائية تائهة في هذا الكون" (بدر, 2018: 21). و قصر الحياة " **مكان افتراضي إذ لا توجد اشارة واضحة في الرواية إليه، فهو خيالي الوجود حيث شبهه بمركبة فضائية تائهة, وذلك لإختفاء الجهنم التي أعدّت للسجناء السياسيين في الطابق الأرضي, الذى يُعد سجنا كبيرا مليئا برجال السلطة السجانين ومخفيا تماما عن أعين الناس عامة وعوائل الضباط خاصة. وفي وصف السارد الذي يقول فيه** "وبالرغم انني ظننت، وهو أمر ليس منافيا للحقيقة، بأنّه مكان استراحة وتسلية ومتعة مخصصا لعائلات شعبة التحريات السياسية، وهو موجود فعلا في طوابقه العلوية. لكني حتى تلك المدة لم أكن دخلت بعد طابقه الأول ولا سردابه، ومن زيارتي الأولى فهمت أن القسم السفلي هو الجحيم بعينه، حيث تشوي أجساد المشكوك فيهم وهم أحياء"(بدر,2018 :24) فيكون السارد هو الشاهد العيان الذي رأى جميع الأحداث داخل القصرفي الخفاء والعلن.

"قصر الحياة" يمثل حالتين متناقضتين يعبر عن تطور المجتمع وتناقضاته الداخلية، يُظهر القصر بوصفه مكانًا ترفيهيًا متقدمًا، مع مطعم شهير ومرافق ثقافية. هذا يرتبط ببداية تاريخ بناء هذا المكان عام 1969، حيث حدثت هذه المدة التغييرات الاجتماعية والثقافية التي شهدها العالم. مع تطور الزمن، تضاف إلى المكان الأبعاد السرية والمظلمة، ويظهر المكان من زوايا مختلفة تمامًا، حيث يُكشَف عن السجن السري والقمع السياسي. هذا التناقض بين المظهر الجذاب والباطن المظلم القاسي للسلطة. هنا نستطيع أن نرى القصر بوجهين مختلفين الحياة والموت أو الترفيه والتعذيب، وهذه صورة لواقع الحياة في المجتمع العراقي تحت السلطة القمعية التي تخفي جميع بشاعتها في باطن القصر ويبدو ظاهره بصورة جذّابة. تصف الرواية بالتفصيل التعامل الوحشي الذي يتعرض له السجناء وتتناول آثاره النفسية والجسدية عليهم. كما تركز الرواية على تجاوزات السجانين وسلوكهم القاسي والعنيف. فيقول السارد: "**وكنت أشهد كل يوم معتقلين يأتون بهم من أماكن مختلفة معصوبي الأعين حيث تأتي الشاحنات بهدوء ومحركها ينغر بقوة، بعد أن تعطى إشارتها من خلال مصابحها العالية يشير لها الحراس بالتقدم حيث تنفتح البوابة الحديدية السوداء مثل واحدة في قلاع القرون الوسطى وترتفع إلى أعلى فتتقدم الشاحنة إلى الأمام داخل الباحة وسرعان ما تهبط البوابة خلفها بهدوء من أعلى إلى أسفل، هنالك تلقي حمولتها من السجناء المعصوبي الأعين، حيث يقودهم السجانون بالضرب والركلات إلى غرف الكهرباء، أو إلى الكراسي المسمرة التي تمزق اللحم حيث يجلسونهم بالقوة، وهنالك آلة لتكسير العظام خاصة بالسجناء الصلبين الذين لا يعترفون بسرعة**", (بدر,2018: 24) انّه مشهد يحيل إلى قسوة الواقع في السجن في ظلّ تلك السلطة التي تدرب أفرادها لاسيّما السجّانين على سحق الآخرين المعارضين لها، والتلذذ بموتهم بطرق لا تخطر على ذهن بشر سويّ.

يقول السارد :" **الحدث الأكبر الذي حدث, بعد عامين من عملي, هو خيانة مفكر الحزب وتدبيره لمؤامرة على الرئيس فقد جمعت الأدلة الأولية لادانته بعد خطأ وقع فيه في اجتماع دوري ذلك العام فقام بانتقاد رئيس الحكم" (بدر,2018 :28) وهنا نكتشف أن الأحزاب السياسية العراقية, تصادر غالبا خصوصية الفرد وتطمس شخصيته, وتطالبه أن يتماهى معها, لا أن يتسق مع نفسه آرائه الفكرية, فالشخص الحزبي الذي يخرج أو يتمرد على رأي الجماعة لابد من أن يعاقب من وجهة نظرهم, وهذا ما حصل لمفكر الحزب بعد أن شكوا في ولائه زجوه في سجن "قصر الحياة".**

ويقول السارد:" **طلبوا منه فقط الاعتراف أولا بضلوعه في المؤامرة على رئيس البلاد, وثانيا كشف أسماء المتآمرين, وفي المرحلة اللاحقة من هو مدبر المؤامرة ومن الدول الخارجية الداعمة. بالرغم الرعب والارتجاف الذي سيطر على مفكر الحزب إلا أنه ابتسم بسخرية أصيلة, منكرا أي ضلوع له بمؤامرة, هذا التصلب أزعج المدير جدا."** (بدر,2018 :31) فلم يستطع مفكر الحزب أن يتفادى أذى التعذيب, والسبب في ذلك عدم اعترافه على اسم الرأس المدبر للخيانة، وعلى الرغم من صنوف التعذيب الكثيرة التي تعرض لها إلا أنّه التزم الصمت ولم يعترف بشيء، ولكن سرعان ماتغير الحياة في سجن قصر الحياة وذلك بعد انهياره تحت التعذيب فيقول السارد:" **لقد استمرت هذه الحالة أياما وشهورا ولم تنقطع, كل يوم يواجه مفكر الحزب بمؤامرته ويعذب وينهار شيئا فشيئا ليعترف بعدد كبير من الأسماء حيث يدونها مديري على ورقة وهويتصبب عرقا, بينما مفكرالحزب يتصبب دما, تطبع جميع الأسماء على الة الكاتبة ثم تبرق إلى مدير الأمن, بعد ساعات تبدأ الشاحنات بالتدفق وهي حاملة الاشخاص المدونة أسماءهم لهذا اليوم, فيقوم الرجال بالتخلص منهم بسرعة, حيث يتم توزيعهم على الشوايات, أدوات سلخ الجلد, ماكنة تكسير العظام ومن ثم وضعهم في أكياس وتحميلها في سيارات لالقا ئها في النهر أو في حفرة عميقة في الصحراء ودفنهم في قبور جماعية"** (بدر,2018 :35) لم يعد غريبا في العراق أن تقضي الشبهة بضحيتها إلى السجن، أو يقود الشك في أحد إلى التعذيب الوحشي، أو العوق أو الموت، بل إنّ كثيرا من الناس الذين حامت حولهم الشبهات سجنوا وقتلوا من دون وجود أدلة ومستمسكات جرمية تدينهم.

يقول السارد:" **قرر الوزير ومدير الأمن أن يحضرا جلسة التحقيق بنفسيهما, وأن يجبرا مديرالتحريات أن يحقق مع مفكر الحزب من أجل أن يعترف على الرأس المدبر لهذه المؤامرة"** (بدر,2018 :36) وقد تعمد السارد أن يكشف طريقة تعاطي الوزير الذي يمثل السلطة الحاكمة للحزب، وذراعها القوية. وفي زيارته المقصودة "لقصر الحياة" أراد أن يوضح بما لايقبل الشك أن عقلية السلطة الفاشية لاتعير اهتماما للمواطن العراقين، ولا تجد ضيرا في تعذيبه, فالسلطة لايهمها كيف يخرج الضحية مشوها كان أم عليه آثار التعذيب التي ربما هي مستديمة ولاتندمل, فما يهمها الاعتراف فحسب أو قبول الضحية والاقرار بالجرم الذي لم يقترفه وهي في مجملها أعمال قهرية تبدد خطر ما يهدد السلطة ورأس النظام آنذاك.

ومما لا يخفى على الدراسة ما تحاول الرواية عرضه من قبيل صراع السجناء ومحاولاتهم للبقاء والنجاة والمقاومة ضد ما أشرنا إليه من قمع. إذ تواجه الشخصيات مواقف صعبة ويظهرون قوتهم وإرادتهم في مواجهة القمع والظلم.وهذا ما نراه في شخصية مفكر الحزب حين:"**سأله وزير الداخلية: اسمع لم يعد لدينا الوقت الكافي, لقد صبرنا كثيرا عليك اليوم أن تنطق باسم الرأس المدبر لهذه المؤامرة, رفع مفكر الحزب عينيه ونظر في عيني الوزير, وأشار له إشارة الموافقة. لحظات من صمت ووزير الداخلية يتململ من الانتظار، لا أحد يعرف ماذا سيقول. الكل ينتظر.**

في لحظة, التفت مفكر الحزب إلى مديري الذي أخذ تنفسه يصعد وينزل, رفع أصبعه وأشار إلى مديري هذا الرأس المدبر للمؤامرة" (بدر,2018: 37) في هذا المقطع يصور لقاءً متوترًا بين وزير الداخلية ومفكر الحزب، حيث يطلب من السجين"مفكر الحزب" الكشف عن هوية "الرأس المدبر" لمؤامرة غامضة. تتجلى الشخصيات عبر الحوار وتفاصيل الوصف؛ الوزير يمثل السلطة، بينما يمثل مفكر الحزب الذكاء والتخطيط. خلال التوتر والمفاجأة في التوقع، يتضح أن مدير السجن هو "الرأس المدبر"، الذي يرمز للقوة

الخفية والغموض. وأنّ أسلوب الوصف وانتظار الجواب والحوار كل ذلك يخلق جوًا من التشويق، والترقب، والصمت المتبادل بين الشخصيات يجسد الضغط النفسي والقلق.

إنّ مدير السجن (ج.ع) هو أحد القادة والمفكرين في الثورة، لديه ولاء كبير للحزب. ومع ذلك، يتم قتله بأبشع طريقة من قبل رجال السلطة عندما شكوا في ولائه.فيقول السارد: " **لقد مزّق مديري بطريقة لا مثيل لها، وهو حي ينظر إلى نفسه ويتلوى من الألم، ثم أخذوه إلى المفرمة وهرسوه وحولوه إلى عجينة من اللحم والعظام .....لقد كان موته أيضا أشبه بالهلوسة, هلوسة العنف والوحشية التي درسها لتلامذته الخمسة. فلم يبق منه شيئٌ سالما غير عين واحدة, لا أحد يعرف كيف, أثارت ضحكهم فأخذوا يلعبون بها مثل الأطفال**" (بدر,2018: 38) على الرغم من أن هذه الرواية تسجل ثنائية الجلاد والضحية، وتبادلها للأدوار، وتماهي بعضها ببعض، إلّا أنّها من جهة أخرى تكشف عن الطبيعة الفظة للأنظمة القمعية الفاشية التي تعاقبت على حكم العراق, وهذا ما نلاحظه من خلال شخصية مدير السجن ونهايته الدرامية بسبب قتله من قبل أفراد دائرته الأمنية التي حوّلته من الجلاد إلى ضحية بعد أن أيقنوا أنه فقد صلاحيته وشكوا في ولائه للحزب، هكذا ترسم السلطة الفاشية مصائر جلاديها، وتحولهم إلى ضحايا في اللحظة التي تراها مناسبة.

وتمتاز الرواية ببنيتها الإيهامية التي تضلل القارىء حتى اللحظات الأخيرة من النص، ثم تكشف لنا بشكل صادم قبل أن نطوي الصفحة الأخيرة عن سرّ ظل السجين"مفكر الحزب" متكتما عليه طوال الزمن الروائي، وعدم الإجابة على السؤال عن الرأس المدبر للمؤامرة،فيأتي الجواب في نهاية النص ونهاية المطاف من كون مدير السجن هو ذلك الشخص الخفي والمقصود.

تتناول رواية (حفلة القتلة) الأحداث في سياق تاريخي وسياسي معاصرين ، أبان الحكم البعثي في العراق وما تعانيه البلاد من عنف واضطرابات وتوترات سياسية. يركز السارد على تصوير صورة السجان والجلاد وأدوات التعذيب ومسؤول السجن والسجين مبرزا المكان المغلق الضيق للسجن، وتأثيره السلبي على نفسية السجناء، فيقول السارد:" **حين دخلت أول مرة للمكان شعرت بهذه الغربة، فقد كان المكان أشبه بالمقبرة، والمحققون يشبهون حراس الماضي، والضحايا معلقون أمامهم مثل ملابس بالية، يطن على وجوههم الذباب**" (بدر,2018: 26). فقد صوّرت الرواية شعور السارد تجاه السجن عند أول دخول له، واحساسه بالفزع والقلق والرهبة ويشبه المكان بالمقبرة لشدّة الظلام والضيق، ومنظر المساجين المعلقين مثل الملابس الرطبة على المنشفة، وهم يلاقون أشد أنواع التعذيب جاء هذا على لسان الراوي العليم في صورة سردية متقنة تجعل القاريء يشعر وكأنه مع السجين في زنزانته، فنقل للقاريء الألم الذي يشعر به السجين في تلك البقعة بعد التعذيب القاسي في زنزانته، بتقنية الصورة السرديّة التي رسمها الراوي العليم لحركة السجين في الزنزانة، ضيقة وباردة ومجردة من أدنى حقوق الأنسان.

تعكس الرواية جرائم البعث السابقة والقمع الذي تعرض له الشعب العراقي في ذلك الوقت، توثق الأحداث وتعبر عن الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان التي تمارسها السلطة الحاكمة. يتجلى هذا من خلال وصف السارد مشاهد العنف والتعذيب والموت، يعرض أمام القارئ الجانب المظلم والقاسي الذي تمتازبه السجون ومراكز الحجز السياسية، حيث يتم استعمال العنف والإذلال كوسيلة للسيطرة.

فهناك أنواع الظلام والصور المشحونة بالتوتر لوصف الجو الكئيب ومظاهر العنف في هذه الحقبة ،هناك وصف دقيق لأماكن السجن في "قصر الحياة" **وللتوتر النفسي للشخصيات بغية نقل جو المأساة والقمع في السجن, فيقول السارد:" قد سرت برفقة مديري، الذي كان يتجول في المجزرة وهو يبتسم كما لو أنه يتجول في غابة، كنت أسير معه وأنا أقرأ على جدران الزنازين أسماء منقوشة، كما لو كانت قبورًا، وكان أحد الميتين ملقى على البلاط وآثار يد على حنجرته، نمرّ من اثنين وهم يجرون سجينا فنسمع صوت انزاع الدم على البلاط**" (بدر,2018: 28) تلتقط الرواية مشاهد مروعة للتعذيب يبتكرها الجلادون كسرا لرتابة عملهم, باضفاء أساليب أكثر ألما لاثبات ذواتهم أمام السجين والجلادين الآخرين. تتنوع الشخصيات في الرواية بين السجناء والجلادين ومدير السجن وغيرهم. يصور"السارد" الجلادين بأسلوب يكشف عن طبائعهم الشريرة والعنيفة، فهو يصف الوجوه المشوهة للسجناء والتصرفات القاسية للسجان لإيصال صور حقيقية ومرئية للقارئ، تجعله يعيش الأحداث ويتخيل الأماكن والشخصيات كي يتمكن من الدخول في القصة وتجربة الجو المظلم والقمع الذي تعيشه الشخصيات تحت سلطة القمع والاضطهاد السياسي. وتأتي تلك الأحداث بأنها مصائر حتمية تتنوع بين التغييب والموت تحت التعذيب. يصف السارد شخصية المدير:"**فهو شاب بالكاد بلغ الأربعين من عمره، له زوجة جميلة وطفلان اثنان في غاية الوسامة, وقد تدرب ودرس في جامعات غربية متنوعة على استراتيجيات الأمن الوطني، المخابرات، وطرق التحري وانتزاع الإعترافات، وتهميم بشبكات التجسس وإبطال المؤامرات السياسية . وبالرغم من ذكائه إلا أني شعرت من اليوم الأول أنه ينتمي إلى أكثر كائنات العالم شناعة. فالشناعة والخبث والدهاء موهبة نادرة, وهذا العالم لايفتقر بأي حال إلى هذه المواهب النادرة التي تنضح قسوة وتعاليا . يلقبونه ببرفسور القتل. وربما طغت شهرته على اسمه**" (بدر,2018: 25). فكان أسلوب المحقق(ج.ع) في التحقيق مع السجناء أسلوباً عنيفا, فيصفه الراوي بأنه شخصية وسيمة مسكونة بالقسوة, فهي كينونة ذاتية فيها, فهو شخصية صارمة وعدوانية ويتفنن في تعذيب السجناء.

إنّ شخصية(المدير) شخصية قاسية متوحشة تتلذذ بالتعذيب والقتل، فهو لايكتفي بالتحقيق بل يشرف على عمليات التعذيب، مّا يدل على تحوله إلى آلة تأتمر بالأوامر وتنفذها أيا كانت، فلا يرى نفسه مسؤولا عن القتل، بل السلطة التي تصدر الأوامر هي المسؤولة عنها، فطاعته لها تلغي ذاته وإرادته. ومع ذلك نلاحظ صورة متناقضة تماما عندما يتعلق الأمر

بالتعامل مع أطفاله وعائلته، فيقول السارد:" **إنه ذاهب ليعلم ابنته السباحة بعد أن نفق تحت يديه سجين أو سجينان....انه الدرس العاشر في المسبح حيث الأب سعيد ورفاقها الأطفال ينظرونها وهي تنجح في العوم بعيون محمرة من الكلور. ومن الفرح انغمر الضابط في الماء للوصول الى القاع في الأسفل**" (بدر,2018 :33) ولعل هذا التعامل يعود إلى التناقض الانفعالي عند الشخصية العراقية التي يمثلها الضابط بين عاطفتي الحب والكراهية التي هي انعكاس لصراع غريزة الحب والموت كما يراها فرويد، إذ لا يستطيع أن يحسم أمره لتعامل واحد، فهو مزاجي يحمل الشيء ونقيضه، فالقسوة ملازمة لطبيعته، فمرة هذه ومرة تلك.(كاظم، 2004 :283)

ومن خلال هذه الشخصية وأحداث السجن، يقدم السارد صورة فاضحة للسلطة العسكرية في العراق التي أغرقت البلاد في دوامة من العنف والدمار ومن امثلة ذلك يقول السارد:"**الكل ينتهي إلى عجينة ممروسة من اللحم والعظام يضعها عمال التنظيف في كيس زبالة تافه، ويرمونه بطريقة مثيرة للسخرية. ولكن من يخرج بأعجوبة فلا يخرج كما دخل أبدا، إنما يخرج مثل سلك صدئ بلا مؤخرة ولا أسنان، لن يخرج إلا عبارة عن فم وثقب للبراز**" (بدر,2018: 27). ونلاحظ في هذه الصور القسوة والإهانة، وذلك يعود إلى أن السجين السياسي هو معاد للسلطة فكريا وعمليا، فالسلطة تعده عدوا وتهديدا لها فأفرادها يستخدمون أشد أنواع التعذيب قسوة وإذلالا، ولأنهم جلادون

والضحية سجين سياسي، فثمة انهيار للعلاقات الانسانية بين الجلاد وضحيته، فتسحب منه انسانيته.

وفي رواية "الركض وراء الذئاب" نلاحظ نوعا آخر من أنواع التعذيب في السجون وهو "الاغتصاب" بوصفه ظاهرة فجة من ظواهر التعذيب النفسي والجسدي الذي يتوخى إيلام الضحية، ومسخها، وتعميق إحساسها بالعار بغية عزلها واقصائها عن المجتمع الذي لايحتضن الكائنات المنبوذة التي تعرضت رغما عنها إلى الانتهاكات الخفية، المسكوت عنها دائما من قبل الضحايا، والتي تحتاج إلى شجاعة نادرة للبوح بها أمام الملأ من أجل كشف المستور، وتعرية الذهنية الدكتاتورية التي لاتتورع عن القيام بالجرائم المخلّة بالشرف من أجل البقاء في سدة الحكم أطول مدّة ممكنة. نجد صورة مشهد اغتصاب شخصية ميسون عبدالله وتعذيبها في سجون السلطة. إذ تعرضت للتعذيب والاعتداء الجنسي بسبب مواقفها السياسية ونضالها كناشطة شيوعية تطالب بحريتها وتحقيق حقوقها كامرأة. منعتها السلطة من ممارسة حقوقها الطبيعية وحياتها بحجة الإنتماء إلى الحزب الشيوعي. فيسرد السارد ما روته له ميسون من تفاصيل هذا الاعتداء بشكل واضح ، حيث إنّه برنامج سياسي محدد موجه ضد الشيوعيين من قبل النظام البعثي. فيقول بأنها:"**في حديثها عن اغتصابها في السجن. وقد سردت تفاصيل هذا الاغتصاب من كونه برنامجًا سياسيا محددًا للبعثيين ضد من الشيوعيين، وهو عرض لج مباشر لاستخدام السلطة، يعين الحاكم وينظم قوانين لعبته السياسية حيث تسمح له بممارسة السلطة دون أي قيد**" (بدر، 2007: 49). فالاغتصاب كان وسيلة السلطة المفضلة, لما له من أثر في المجتمع الشرقي على ذات السجين, ولذلك أشيعت تلك الوسيلة لإرهاب الأشخاص الذين يفكرون بمعارضتها. فضلا عن ذلك يكشف السارد عن طبيعة الاضطهاد الذي يمارسه النظام السياسي ضد المعارضين والناشطين، وخاصةً المرأة التي تعد ضعيفة ومستهدفة بشكل خاص، وكذلك العنف الذي تعانيه الشخصيات بشكل عام،كما يكشف عن قسوة السلطة وانتهاكها لحقوق الإنسان الأساسية. ومما يطالعنا بين الشخصيات شخصية "لاليت" التي تروي قصتها في سجن"كيرشيلي":" **حيث قضت أربعة أعوام, كانت تجبر على التجول وهي عارية وتعرضت أكثر من مرة للاغتصاب**" (بدر, 2007 :105) وهنا يمثل الاغتصاب أحد الانساق الثقافية التي تكشف عن همجية السلطة في العراق, وهو نسق مهيمن في الثقافة البعثية في السجن على نحو عام ويأتي استعمال الاغتصاب لإذلال المعارضين وإخضاعهم.

ورواية "مصابيح أورشليم" تروي أحداث مدّة زمنية ترتبط بحكم النازية والمجازر التي ارتكبتها ضد اليهود في مدّة الحرب العالمية الثانية ، يقول نعومكن:"**كنت واقفا في الساحة أراقب بفزع ترتيبات الإعدام الذي كان سينفذ بعد خمس دقائق .....كلنا في قمصان الموت موزعين على خمس وجبات، كل وجبة تتكون من عشرة محكومين. كنت في الوجبة الثالثة، فأوثقونا إلى أعمدة حديدية في الساحة المبلطة، كانوا يوثقونهم على الأعمدة ويضعون الأكياس في رؤوسهم ثم يطلقون الرصاص عليهم, وكانت قدماي تخران من الخوف, ماكانت قدماي قادرتين على حملي. قلت لنفسي لا أريد أن أموت.... لا أريد أن أموت....بعد أن أوصلونا إلى العمود كانت جثث القتلى الذين أعدموهم قبلنا مكومة بعضها على بعض, والمكان الذي وقفت عليه سابحا بالدم...** " (بدر، 2021م، 206). كل ذلك يسرده "نعومكن" باعتباره الناجي الوحيد من الإعدام أما رفاقه فقد واجهوا مصيرهم المحتوم. فقبل سوق كل وجبة من السجناء المحكومين بالإعدام إلى تنفيذ حكم الإعدام فيهم، يجد الآخرين يلوذون بالصمت يرتجفون من الخوف وهول الصدمة. ويشكل الإعدام المحطة النهائية للسجناء المعذبين ، وقد كان ذلك مرعبا وهم ينتظرون اجلهم المحتوم، فلا يعد الموت هنا سريعا بل يتحول الموت كما يقول(فوكو) إلى موت تعذيبي يكون فيه الوجع والألم محسوبا ومدرجا،" فهو فن امساك الحياة في الوجع, وذلك بتقسيمه إلى ألف موتة مع الحصول قبل أن تتوقف الحياة، على أشدّ حالات النزع"(فوكو 1990 :71) فطرق الموت هذه مقصودة من السلطة, تسعى فيها إلى أكبر قدر من الألم للضحية قبل موتها.

وقد تمثل ذلك الموت التعذيبي الذي لاحظناه في الروايات بشكل فنتازي، إذ أنّ الفنتازيا ترتكز على الواقع في صلاتها معه لكنّها تسلط الضوء عليه بطريقة مختلفة عن المألوف،وذلك مما يحفز الشكّ عند المتلقي فهل هي مشاهد تنتمي إلى هذا العالم أم إلى عالم آخر مغاير، فطريقة إعدام السجين واتلافه وحذفه من الوجود بهذه الطريقة والكيفية تعطي التصور الدقيق من أن السلطة تنظر إليه كشيء من الأشياء الجامدة التي تسمى ب(التشيء) وهو أحد الوسائط التي تتحقّق عبرها الفنتازيا.(عليّ 2008 :137)

يريد السارد أن يصور لحظة مؤلمة ومرعبة في ساحة الإعدام، حيث يرصد بألم ترتيبات التنفيذ والانتظار المشوب بالخوف والفزع لإيصال الجو المشحون بالتوتر والترقب، مع التحول المفاجئ إلى وقائع أخرى تتعلق بصور العنف في السجون، تتجلى الصدمة والرعب من خلال تصوير الأحداث المروعة وتفاصيل التعذيب بأسلوب معقد يستحضر المشهد بشكل مؤلم وملموس.

مشهد آخر من رواية "الكذابون يحصلون على كل شيء"، تصوير لحال المساجين وكيفية معاملة الشرطة العسكرية معهم، حيث الضابط: "أمر اثنين من الشرطة العسكرية أن يخرجوا السجناء من السيارة فتحوا الأبواب وجروهم بعنف، كانوا حفاة لا يرتدون سوى بناطيلهم وستراتهم. بهدوء شديد اقترب منهم فريشر وأزال عنهم قيودهم، نظر في وجه أحدهم هو الأصغر و الأوسم، ولكنه كما يبدو هو القائد, وابتسم له... أراد أن يقول له شامتا:

-هذا جزاء من يقف في وجه الرجل الأبيض

دفعهم بيده وأمرهم بالمسير .... إلتفت إليه هذا السجين وسأله:

- **ستقتلوننا أليس كذلك؟**
- **فرد فرشير ببساطة: نعم، ماذا تعتقد، هل سنأخذك في هذا الوقت من الليل إلى حفلة**
- **ضحك الوزراء السود بينما تقبل السجين بجرأة إعلان موته الوشيك**". (بدر، 2017: 115-116) ، السخرية التي يستعملها "القائد" فهي إحدى وسائل التعذيب، فكثيرا مايصاحب التعذيب الضحك والابتسام من قبل الجلاد سخرية من السجين وامعانا في تعذيبه نفسيا ، حيث تُفتح الأبواب بقوة ويسحبونهم بقسوة من السيارة. وهم حفاة وعلى اجسادهم فقط بناطيلهم وستراتهم فقط، وعاجزون عن الدفاع أو التصدي لهذه المعاملة القاسية المفعمة بالعنف والتوتر، مما يشير إلى التطهير القسري والتحكم المُفرط من قبل السلطة العسكرية.

صورة التعذيب والقمع تتجلى بوضوح في الروايات من خلال تصوير آليات الاعتقال العشوائي والاعتداءات الجسدية والنفسية التي يتعرض لها السجناء. فيكون الاعتقال بدافع عرقي أو تعصبي، حيث يُنفذ الاعدام بسرعة ويتم التخلص من الجثث فيقول السارد: "**أنجزت العملية كلها خلال خمس عشرة دقيقة. وتم التخلص نهائيا من الجثث بعد أربعة أيام بتقطيعها إلى قطع صغيرة وإذابتها في حمض الكبريتيك**". (بدر، 2017: 118) تأتي المشاهد الفنتازية في معاملة السجناء حتى بعد إعدامهم،وموتهم بملاحقة الجسم إلى أبعد حدّ من التشويه والغاء ذات الميت وكرامته، بقطع الجثث وتشويهها، من خلال هذه المشاهد، تُظهر الروايات وحشية التعذيب وما تمارسه السلطة السياسية،

وتكشف الألم والمعاناة التي يتعرض لها الأفراد. كما تعبّر عن واقع مرّ بسبب إضطهاد السلطة وتجاوزاتها وظلمها تجاه الشعب متمثلة في أنظمة استخباراتية قمعية، وهنا يهدف خطاب الرويات إلى بيان غياب العدالة وحقوق الإنسان وأهمية هذه الممارسات القمعية للسلطة.

ثمة صورة واقعية وشرسة للتعذيب والقتل في السجون، حيث يفقد الجلادون الرحمة والإنسانية ويتحولون إلى وحوش قبالة السجناء الذين يقفون في الممر ويحيط بهم الجنود ورجال الشرطة، ويتعرضون للضرب، حيث يواجهون قسوة المعاملة والاستبداد من الجلادين. إن السلطة تختار الحراس بعد أن تدرس حالتهم الاجتماعية والنفسية ومداركهم، وتجري عليهم عمليات مسح دماغ لتقنعهم بأن السجين عدو يهدد الجميع مستغلة التخلف والقهر الاجتماعي لدى الحارس الذي يعوضه بعدوانية تنقلب إلى سلوك عنيف يستعمله ضدّ السجناء مما يجعله يقوم بدوره على أكمل وجه حيث يتحول الصراع مع السلطة إلى صراع بين السجين والسجان.

النتائج

توصلنا في هذه الدراسة إلى عدة نتائج أهمها:

1. تبين الروايات المدروسة موقف الأحزاب السياسية في العراق من حرية التعبير وحرية الرأي وإنها لم تكن موفقة في ذلك منذ تأسيس الدولة العراقية.
2. تصور روايات علي بدر التوترات والاضطرابات والأزمات السياسية الحادة التي عصفت بتاريخ العراق ووجدت تأثيرها في المجتمع العراقي.
3. احتل السجن مكانا بارزا في روايات علي بدر السياسية، وصوره تصويرا شاملا يجعل القاريء أو الباحث يشاهد جميع الصور التي تحدث في السجون من جميع أنواع التعذيب الجسدي والنفسي، بحيث تجعل هذه الصور شعور مؤلم وحالة نفسية سيئة للقاريء أو الباحث.
4. أخذت رواية حفلة القتلة النصيب الأكثر بين روايات الروائي في تسجيل أحداث السجن ووصف السجانين والسجناء بوصفهم شخوصا فاعلة فضلا عن تصوير المكان بوصفه مسرحا لقمع وجرائم السلطة على الرغم تكوينها السردي المتمثل في مجموعة قصص صغيرة متنوعة, جميع صورها تعرض الواقع المرّ والقمع السياسي في العراق، وكذلك الرواية تكشف القناع الخادع عندما تعرض صورة قصر الحياة التي متكونة من تطور المجتمع في خارجها وتخلفاته من داخلها.
5. اهتم الروائي بتقديم الشخوص على الرغم من تقابلها فقد صور رجال السلطة والقائمين على السجون بالوحشية المجنونة كما صور المهمشين من السجناء المظلومين بالقهر والخوف والاقصاء. بما في ذلك التصوير من أبعاد سردية متنوعة ومختلفة. .
6. تتجلى صور الاغتصاب بوصفها من الأنساق المضمرة كما في رواية الركض وراء الذئاب وما جرى فيها من تعذيب الفتيات المسجونات واغتصابهن.
7. يروي بدر في رواية(مصابيح أورشليم) صورة الاعدام الجماعي كإحدى صور القمع الجمعي وسط أجواء الصدمة والخوف والترقب لما وصلت إليه السلطة من سطوة وحشية, وحالة نفسية مؤلمة قبل الاعدام.

المصادر

أحمد, عدنان حسين (2014)، أدب السجون خلال سنوات الحكم الديكتاتوري في العراق، الطبعة الأولى، لندن: دار الحكمة.

بدر, علي (2007)، الركض وراء الذئاب، الطبعة الأولى، عمان: دار الفارس للنشر والتوزيع.

بدر, علي (2009)، مصابيح أورشليم، الطبعة الثانية، عمان: دار الفارس للنشر والتوزيع.

بدر, علي (2017)، الكذابون يحصلون على كل شيء، الطبعة الأولى، بيروت: دار الحمراء.

بدر, علي (2018)، حفلة القتلة، الطبعة الأولى، بغداد: دار ألكا للنشر والتوزيع.

صديق, حسين (2001)، الإنسان والسلطة" إشكالية العلاقات وأصولها الإشكالية، د,ط، دمشق: منشورات إتحاد الكتاب العرب.

علي, هيثم الحاج (2008)، الزمن النوعي وإشكالية النوع السردي، الطبعة الأولى، بيروت: مؤسسة الغنتشار العربي.

فوكو, ميشال (1990)، المراقبة والمعاقبة, ولادة السجن، ترجمة: علي مقلد، د. ط، بيروت: المركز الإنماء العربي.

الفيصل, سمر روحي (1994)، السجن السياسي في الرواية العربية، الطبعة الثانية، طرابلس: جروس بروس.

كاظم, نادر(2004)، تمثيلات الآخر- صورة السود في متخيل العربي الوسيط، الطبعة الأولى، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

المنصف, غائي محمد (1992)، أدب السجون من خلال أقاصيص لطفي الخولي، د.ط، تونس: جامعة 09 أفريل.

منيف, عبدالرحمن (2003)، بين الثقافة والسياسة، الطبعة الثالثة، عمان: مؤسسة العربية للدراسات والنشر المركز الثقافي العربي.

النصير, ياسين (2010)، شحنات المكان، الطبعة الأولى قطر: وزارة الثقافة والفنون والتراث.

Original Article |**DOI:** https://doi.org/10.14500/kujhss.v7n2y2024.pp255-260